الفصل الخامس

المنتجون الجُدد

لا تُقللْ أبداً من قوة مليون هاوٍ يملكون مفاتيح للمصنع

في ليلة ٢٣ فبراير من العام ١٩٨٧م كشف مرصد كاميوكاندي (٢) الموجود تحت الأرض في اليابان أربعة وعشرين نيوتريوناً في انفجار دام ثلاث عشرة ثانية. وبالرغم من أن أربعة وعشرين نيوتريوناً قد لا تبدو عدداً كبيراً، فإن المرصد يكشف في العادة نيوتريونين، أو ثلاثة نيوتريونات في الساعة ونادراً ما تكون في قمتها، وبالتالي كان ذلك شيئاً خاصاً؛ ولكن لمعرفة ما تعنيه فعلاً كان لا بد من الانتظار حتى تصل التقارير عن الملحوظات الأخرى.

وضع علماء الفلك الفيزيائيون منذ فترة طويلة نظرية مفادها أنه عندما ينفجر نجم، فإن طاقته تتحرر على شكل نيوتريونات؛ أي جزيئات منخفضة الكتلة دون الذرية تطير عبر الأكوان، كما تعبر الطلقات خلال ورق المناديل، ويعود جزء من النظرية إلى أنه في المرحلة الأولى من هذا الانفجار، فإن الدليل الوحيد المرئي هو سيل مندفع من هذه الجزيئات، وبعد ساعات عدة تظهر هذه الحمم كضوء مرئي. ونتيجة لذلك تكهن العلماء بأنه عندما يتحوَّل نجم إلى سوبرنوفا supernova بالقرب منّا، فإننا نكتشف النيوتريونات قبل ثلاث ساعات من رؤيتنا للطيف المرئي.

إن الطريقة التي يمكن أن نختبر بها هذا الربط بين النيوتريونات والضوء المرئي هو القيام بالملحوظتين، وقياس الفارق الزمني بينهما، إلا أن المشكلة المتعلقة بالجزء البصري من هذه الملاحظات المقترنة ببعضها بعضاً، هي أنه يجب النظر إلى الجانب الصحيح من السماء، إلا أن ذلك لم يمثّل مشكلة كبيرة للمراصد التي تراقب النيوتريونات، فنسبة إلى شكلها الكروي يمكن لقاعدة الكشف في مرصد كاميوكاندي أن تسجل النيوتريونات التي تخترق الأرض بغض النظر عن الاتجاه الذي تأتي منه. ولكن لرؤية الانفجار في الضوء المرئي يجب توجيه التلسكوب نحو النقطة المحددة وفي الوقت المحدد، ومن نافلة القول إن السماء تمتد لمساحات شاسعة مما يُصعّب تلك المهمة.

لم يكن هناك ما يكفي من علماء الفلك المحترفين الذين يراقبون ما يكفي من السماء كي تتوافر لهم فرصة مشاهدة مثل هذا الحدث، ولكن كان هناك الآلاف من علماء الفلك الهواة الذين يسعدهم القيام بتلك المهمة بأنفسهم، ويستطيع هؤلاء الهواة الجدد – المسلحون بالتلسكوبات غير الحساسة نسبياً، الموجهة بواسطة الحاسوب، ذات الأجهزة البصرية من نوع "دوبسون"، التي تتيح فتحات عدسات واسعة (قد تصل إلى اثنتي عشرة بوصة) ولها أجهزة حس ذات حساسية عالية نوع سي سي دي CCD، يمكنها أن تجمع ضوءاً أكثر مما تفعله العين البشرية – أن يلتقطوا صوراً فوتوغرافية للسماء أفضل من علماء الفلك الذين يملكون تلسكوبات بحجم المنزل قبل قرن مضى.

كان أول شخص يرى السوبرنوفا ١٩٧٨أ Supernova 1987A مراقباً يعتبر بين الهواة والمحترفين وهو "إيان شيلتون كندي"، طالب جامعي ترك الدراسة، كان يقوم على رعاية مرصد في جبال الإنديز في الشيلي لقاء استخدام التلسكوب الذي يبلغ قطر عدسته أربعاً وعشرين بوصة في وقت الفراغ عندما لا يكون مستخدماً من قبل عالم الفلك الأكاديمي، وقد كان أحد أوقات ذلك الفراغ في ليلة ٢٣ فبراير التي كانت الرياح تعصف فيها، في تلك الليلة قرر شيلتون استخدام التلسكوب لمدة ثلاث ساعات على السحابة الماجلانّية الضخمة.

وكما حدث فقبل ١٦٨,٠٠٠ عام بالضبط، وعلى بعد ١٦٨,٠٠٠ سنة ضوئية بالضبط انفجر نجم على حافة تارانتولا نيبولا Tarantula Nebula، إلا أن الحدث يبدو من الأرض ومن المنظر الذي يراه شيلتون، كما أنه يحدث في تلك اللحظة بالذات حيث ظهر اندفاع سريع من الضوء فجأة في أحد جوانب السحابة لم يكن فيه أي شيء ملحوظ من قبل، حملق شيلتون في الألواح الفوتوغرافية لمدة عشرين دقيقة ثم اندفع إلى الخارج ليراها بأم عينيه، وبالتأكيد كان الوميض موجوداً لتشاهده العين المجردة منذ ١٦٠٤م.

إن الربط بين "شيلتون" ومرصد كاميوكاندي (الثاني) تتعلق بالوقت، فقد شاهد مرصد النيوتريونات الانفجار عند الساعة ٧:٣٥ حسب التوقيت العالمي، لاحظ "شيلتون" أول ضوء باهر عند الساعة ١٠:٠٠ حسب التوقيت العالمي بعدما يقل قليلاً عن ثلاث ساعات بعد اندفاع النيوتريونات، وإلى الآن يتماشى ذلك مع النظرية ولكن هل كان من الممكن أن يظهر قبل ذلك حتى قبل مشاهدة شيلتون لها؟

من حسن الحظ، كان هناك اثنان من علماء الفلك الهواة يعملون مستخدمين تلسكوبات أصغر وغير احترافية، في نيوزيلندا تمكن "ألبرت جونس"، وهو شخص ذو خبرة مشهود له بأكثر من نصف مليون ملحوظة من النظر بشكل جيد إلى تارانتولا نيبولا Tarantula Nebula عند الساعة ٩:٣٠ حسب التوقيت العالمي؛ ولكنه لم يرَ شيئاً غير اعتيادي. قام "روبرت ماكنوت" وهو فلكي هاوٍ آخر بتصوير الانفجار عند الساعة ١٠:٣٠ حسب التوقيت العالمي في أستراليا، مما يؤكد توقيت "شيلتون". وبالتالي يكون الضوء قد وصل في وقتٍ ما بين الساعة ٩:٣٠ و ١٠:٠٠.

هذه هي الطريقة التي حدثت بها واحدة من أعظم الاكتشافات الفلكية في القرن العشرين، وهكذا تأكدت نظرية رئيسة تفسر الكيفية التي يعمل بها الكون ويرجع الفضل في ذلك إلى هواة في نيوزيلندا، وأستراليا، وهاوٍ سابق يحاول أن يتحوَّل إلى محترف في شيلي، والعلماء الفيزيائيين في الولايات المتحدة الأمريكية واليابان. وعندما أعلنت دراسة علمية أخيراً عن الاكتشاف للعالم أجمع، تشاركوا جميعهم في ملكية الاكتشاف.

وصف "ديموس"، وهو مركز بريطاني للأفكار، هذا الحدث في تقريرٍ أُعِدَّ عام ٢٠٠٤م على أنه لحظة رئيسة في وصول عهد "الهواة والمحترفين"، يعمل فيها الهواة والعلماء جنباً إلى جنب. وجاء في التقرير "كانت الأعمال الفلكية تتم فيما مضى في معاهد البحوث العلمية الكبيرة، إلا أنها تتم حالياً بالتعاون بين الهواة والمحترفين. استمر العديد من الهواة في العمل بأنفسهم، كما لا يزال الكثير من المحترفين في العمل في معاهدهم العلمية، إلا أنه قد ظهرت شبكات البحوث العالمية التي ربطت بين المحترفين والهواة الذين لديهم اهتمامات مشتركة في النجوم المتوهجة والمذنبات والكويكبات".

كما أشار "تيموثي فيريس" في كتابه *"الرؤية خلال الظلام"* حيث يتحدث عن تاريخ علم الفلك الحديث للهواة "، إلى أنه إذا كان للمرء أن يختار تاريخاً تحول فيه علم الفلك من الأيام القديمة التي كان المحترفون يعملون بمفردهم على تلسكوباتهم إلى شبكة عالمية تربط المحترفين والهواة، فإن التاريخ الجيد المرشح لذلك سيكون ٢٣ فبراير ١٩٧٨م". ويخلص "ديموس" إلى أن "علم الفلك يتحوَّل بشكل سريع إلى علم تدفعه حركة الهواة والمحترفين ذات الموارد المفتوحة التي تعمل جنباً إلى جنب مع مجموعة علماء الفلك المحترفين وعلماء الفلك الفيزيائيين الأقل عدداً بكثير".

إن التقنيات التي أتاحت هذه الحركة للهواة والمحترفين هي بصريات دوبسون وCCD، ووصول شبكة الإنترنت كآلية لمشاركة المعلومات. لقد ضخَّمت هذه الأدوات مراتب علماء الفلك الهواة وزادت من تأثيرهم إلى درجة كبيرة، أصبح علم الفلك خلال العقدين الماضيين واحداً من أكثر المجالات ديمقراطية في العلوم، ويعود السبب في ذلك جزئياً إلى الدور الذي يؤديه الهواة.

تدعو وكالة الفضاء الأمريكية "NASA" الهواة في الكثير من الأحيان لمراقبة كويكبات محددة التي قد تكون متجهة نحو الأرض، وهي مهمة مراقبة يتم تنسيقها عن طريقة رسالة جماعية ترسل بالبريد الإلكتروني تدعى "قائمة بريد الكوكب البسيطة" التي يديرها "ريتشارد كواليسكي"، الذي يبلغ من العمر اثنين وأربعين عاماً، ويعمل

حمّالاً للحقائب لدى الخطوط الجوية الأمريكية في فلوريدا في النهار، وعالم فلك في المساء، ويسجل بعض الهواة المدرجين على القائمة والبالغ عددهم ثمانمائة ملحوظاتهم لمجرد المتعة، بينما يأمل آخرون أن تُخلد أسماؤهم بتسمية اكتشافات مهمة بأسمائهم، إلا أن الشيء الجدير بالذكر أن لا أحد منهم يقوم بذلك من أجل المال.

يملك علم الفلك مجالاً طبيعياً للطاقة البشرية من المتطوعين، وكما ذكرنا من قبل، فإن المشكلة مع السماء هي أنه يتوجب النظر إلى المكان الصحيح في الوقت الصحيح لمشاهدة بعض الظواهر المثيرة للاهتمام مثل تطور الكويكبات، أو مجموعة كواكب، ويرتبط الأمر إلى درجة أقل بمدى كبر أو تكلفة التلسكوب العالية، وإلى درجة أكبر بعدد العيون المسمرة على السماء في تلك اللحظة المعينة، ويزيد الهواة من القوة البشرية لعلم الفلك مرات عديدة وليس فقط بمجرد النظر إلى السماء من ساحاتهم الخلفية.

SETI@home (أي البحث عن الذكاء القائم خارج العالم من مصادر منزلية) هو مشروع يربط قوة الحاسب الآلي الإضافية لما يزيد على نصف مليون حاسب آلي منزلي، ويقوم المشروع بعد جمع ساعات وساعات من الإزعاج الأبيض المسجل من الفضاء بتوزيع بياناته اللاسلكية التلسكوبية إلى الحواسب الآلية للهواة، وفي الأوقات التي لا يُستخدم فيها الهواة حواسيبهم الآلية تظهر شاشة توقف خاصة على شاشاتهم، وأثناء عرضها الصورة الكونية تقوم بمسح كل تسجيل على أمل الحصول على إشارة تكون قد أتت من ذكاء خارجي، ويستطيع المشروع عن طريق توزيع بياناته إلى حواسيب هؤلاء الهواة الآلية من فحص عددٍ أكبر من الإشارات بهذه الطريقة، وكل ما يتوجب على الشخص عمله للمشاركة هو تحميل بعض البرمجيات.

هناك مشروع آخر يفتح مصادر تحليل صور المريخ للهواة، فقد وضعت وكالة الفضاء الأمريكية ناسا صوراً لعقود التقطتها مدارات فايكنج وطلبت من زوار الموقع النقر على كل الحفر التي يمكنهم رؤيتها مع تصنيفها على أنها حديثة، أو رديئة، أو

باهتة، وفي العادة تكون هذه مهمة شاقة للغاية للعلماء والطلاب الجامعيين قد تأخذ شهوراً، أو حتى سنوات؛ ولكن استطاع الهواة في مشروع النقر في المريخ في حدود ثلاثة أشهر فقط من تمييز ما يزيد على ٢٠٠,٠٠٠ حفرة وبدقة تضاهي الجيولوجيين الخبراء.

يكون الشعار في البرمجيات ذات المصادر المفتوحة، حيث يستطيع أي شخص المشاركة والإسهام في المشروع يكون الشعار "مع العدد الكافي للعيون، فإن كل أجهزة التصنت ليست مهمة"، وبالقدر نفسه مع علم الفلك، فإنه مع العدد الكافي من العيون، فإننا نرى الكويكب وأسماءنا مكتوبة عليه وقبل وقت مبكر.

بالطبع، هناك حدود لما يمكن تحقيقه بواسطة التعاون بين الهواة والمحترفين، حيث إنهم يقومون إلى حدٍ كبيرٍ بجمع البيانات وليس وضع نظريات جديدة عن الفيزياء الفلكية، وفي بعض الأحيان لا يكونون قادرين على التحليل الصحيح للبيانات التي يقومون بجمعها، ولكن على الرغم من ذلك، فإن مكانهم في هذه المجال يبدو مثبتاً، وكما كتب "جون لانكفور" المتخصص في تاريخ العلوم في مجلة *"السماء والتلسكوب"*، وهي المجلة المهمة التي تُعنَى بعلماء الفلك الهواة الأمريكيين: "سيكون هناك دوماً اختلاف بين المحترفين والهواة، ولكن قد يكون من الصعب تمييز المجموعتين في المستقبل".

إتاحة أدوات الإنتاج للجميع

إن الجديد في هذا الأمر هو الطريقة التي يتم بها وليس المفهوم نفسه، وبالطبع فإن المرجح أن "كارل ماركس" هو المنظِّر الأصلي لاقتصاد الهواة والمحترفين. يلاحظ ديموس: *"في الفكر الألماني"* المكتوب بين العام ١٨٤٥م، والعام ١٨٤٧م، ذكر ماركس أن العمالة التي تعمل بالقوة والتخطيط والأجر سوف يتجاوزها النشاط الذاتي". ويأمل أن يأتي الوقت الذي يترك فيه "الإنتاج المادي لكل شخص وقتاً إضافياً للنشاطات الأخرى. وقد بشَّر "ماركس" بمجتمع شيوعي "لا يوجد فيه أي شخص يملك ميداناً حصرياً من النشاط ولكن يستطيع أحدهم أن يصبح ملماً بأيِّ فرعٍ يرغب فيه مثل

الذهاب للصيد في الصباح، وصيد السمك في الظهر، وتربية الماشية في المساء، والعمل في النقد بعد وجبة الغداء تماماً دون أن أصبح صياداً للحيوانات، أو للسمك، أو راعياً، أو ناقداً".

للاستمرار مع مصطلحات "ماركس"، فإن التعاون بين الهواة والمحترفين هو نتاج القوة الأولى للطرف الطويل، أي تعميم أدوات الإنتاج.

إن التأثير الذي نراه في علم الفلك موجود في مجالات أخرى لا تُحصَى ولا تُعد، فكما جعل الجيتار الكهربائي موسيقى البوب أكثر جماهيرية قبل أربعين عاماً، فإن سطح المكتب وأدوات الإنتاج قد عمَّمت عمل الاستوديو. يقوم برنامج "أبل جاراج باند" (Apple Garage band) المجاني مع كل جهاز حاسب آلي من نوع أبل ماكنتوش بتحية المستخدم بالاقتراح بأن يقوم بتسجيل أغنيتك الناجحة التالية، ويوفِّر الأدوات لعمل ذلك، وبالقدر نفسه، فإن كاميرات الفيديو الرقمية وبرمجيات التحرير الموجودة على سطح المكتب (يتم تزويدها مجاناً مع كل نسخة من برنامج ويندوز وكل حاسب آلي من نوع ماكنتوش)، تضع مثل هذه الأدوات في يدي صانعي الأفلام المتوسطين في منازلهم التي كانت في وقتٍ من الأوقات حصراً على المحترفين.

هناك أيضاً الكلمات المكتوبة، التي تكون في كثير من الأوقات الحد الفاصل في المساواة بين الناس، وبالرغم من أن آلة التصوير هي الأولى التي كشفت الكذبة التي تقول" "إن مَنْ يملك الصحافة يملك القوة"، فإن المدونات هي التي أظهرت نهضة النشر للهواة. واليوم ينشر الملايين من الناس يومياً لجمهور يعتبر مجتمعاً أكبر من أي جمهور تستطيع أن يدَّعيه أي منفذ من منافذ الإعلام. إن ما أظهر المدونات هي الأدوات المتاحة للجميع، ووصول البرمجيات، والخدمات البسيطة الرخيصة التي جعلت النشر على الإنترنت سهلاً يستطيع أيُّ شخصٍ كائناً مَنْ كان القيام به.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى تحرير الصور وطبعها على سطح المكتب، وألعاب الفيديو التي تشجع اللاعبين على إنتاج مستوياتهم المتعددة الخاصة بهم ومشاركتها مع

الآخرين وطبع الكتب عند الطلب. قبل عدة عقود كان هناك سببان لعدم قيامنا بصناعة أفلام ناجحة:

١- لم نكن نملك القدرة على الوصول إلى الأدوات اللازمة.

٢- لم نكن نملك الموهبة.

أما اليوم، فإن هناك عذراً واحداً وحتى ذلك العذر ليس عذراً قوياً كما كان. إن هوليوود عاصمة صناعة السينما العالمية وبكل كفاءاتها ليست قادرة على إيجاد كل صانع أفلام عظيم محتمل في جميع أرجاء الكون، أما التكنولوجيا الرخيصة والموجودة في كل مكان، فيمكنها أن تفعل ذلك. في وقتٍ من الأوقات كانت الموهبة تشق طريقها نحو أدوات الإنتاج، أما الآن فإنَّ العكس هو الصحيح.

إن نتاج كل ذلك هو أننا نتحوَّل من مجرد مستهلكين سلبيين إلى منتجين فاعلين كما أننا نفعل ذلك حباً بها (كلمة هاوٍ الإنجليزية *amateur* مشتقة من كلمة *amator* اليونانية التي تعني المحب أو العاشق). وتستطيع أن تراها في كل مكان من حولك من المدى الذي تشارك فيه مدونات الهواة الاهتمامات مع وسائل الإعلام الكبرى والفرق الموسيقية الصغيرة التي تنشر الأغاني على الإنترنت بدون التسجيل مع شركة أسطوانات مع سيطرة المستهلكين على المراجعة على شبكة الإنترنت، وكما أن ضبط الإنتاج قد تحوَّل من "تملك الحق في القيام بها" إلى "ما الذي يمنعك من القيام بها؟"

يدعو المؤلف "ديو سيل" هذا التحوُّل من الاستهلاك إلى مشاركة "الإنتاجية".

> إن "اقتصاد الاستهلاك" هو نظام يتحكم فيه المنتج، الذي لا يتعدى فيه المستهلكون كونهم مصادر للطاقة التي تحوِّل "المحتوى" إلى نقد. إن هذه نتيجة فاسدة تماماً للسلطة المطلقة التي يمسكها المنتجون على المستهلكين منذ أن استولى المنتجون على الثورة الصناعية.
>
> تعطي أبل ماكنتوش المستهلكين الأدوات التي تجعلهم منتجين، إن هذه الممارسة تُغيِّر بشكل جذري كُلّاً من السوق، وكذلك الاقتصاد الذي يعيش عليه.

إنني أستطيع أن أرى ذلك في أطفالي الصغار وأنا أكتب آلياً أفلاماً سينمائية قصيرة للحاسب الآلي يتم إنتاجها ببرمجيات ألعاب الفيديو، إنَّ كل ما يحتاجه المنتجون بأجهزة السينما مع استخدام محركات الألعاب ثلاثية الأبعاد مثل "هالو ٢" أو" سيمز" لكل البصريات هو كتابة نص والتحكم في الشخصيات، وعمل صوت للجمل المختلفة، ويتم كل شيء آخر من الخلفيات والكاميرات وموديلات السيارات بواسطة برمجيات الألعاب. إن الأمر شبيه بوجود Pixar في كل Xbox، أو حاسب آلي.

كان أول رد فعل للأطفال هو مراقبة أفلام الحاسب الآلي والاستمتاع بها على أنها نوع من الترفيه، وكان رد فعلهم الثاني هو التعبير عن الفضول عن كيفية عمل هذه الأفلام، أما رد فعلهم الثالث فقد كان السؤال عمَّا إذا بمقدورهم أن يصنعوا مثله بأنفسهم. (والجواب بالطبع هو نعم). وينمو جيل وهو يشاهد أشخاصاً مثلهم ينتجون أعمالاً إبداعيةً رائعةً مما يترك انطباعاً وتأثيراً.

إن مشاهدة فيلم أو الاستماع إلى موسيقى هو شيء، والتفكير في العبقرية أو النبوغ، وأن هناك أشخاصاً موهوبين والمعدات الرائعة أنتجت هذا العمل الفني الفريد الذي نقدره شيئاً آخر، ولكن بمجرد أن تعرف ما يوجد خلف الستارة تبدأ في الإدراك أن ذلك الشخص قد يكون أنت. فقط في الوقت الذي تصبح فيه أدوات الإنتاج شفافةً نكون ملهمين للابتكار والإبداع. وعندما يفهم الناس كيف تتم الأعمال العظيمة يكونون أكثر احتمالاً في القيام بها بأنفسهم.

يملك الملايين من الناس العاديين في يومنا هذا الأدوات والقدوة لكي يصبحوا منتجين هواة. وقد يملك البعض منهم أيضاً الذكاء والبصيرة، ولأن وسائل الإنتاج قد انتشرت بصورة واسعة وللعديد من الناس، فإن الأشخاص من ذوي الذكاء والبصيرة - وإن كان نسبتهم ضئيلة من العدد الإجمالي - يصبحون قوة يُحسب لها ألف حساب. لا تندهش إذا جاءت بعض من أكثر الأعمال إبداعاً وتأثيراً في العقود القليلة التالية من مجموعة الهواة والمحترفين الملهمين وليس من المصادر التقليدية في العالم

التجاري. إن تأثير هذا التحوُّل يعني أن تعميم أدوات الإنتاج سيمضي بخطى سريعة لم تكن معروفة من قبل.

ظاهرة ويكيبيديا

في يناير من العام ٢٠٠١م سعى تاجر ثري اسمه "جيمي ويلز" لبناء موسوعة ضخمة على شبكة الإنترنت بطريقةٍ مختلفة تماماً، وهي الاستفادة من حكمة الملايين من الخبراء الهواة وأشباه الخبراء والناس العاديين الذين يعتقدون أنهم يعرفون شيئاً، وستكون هذه الموسوعة متاحة مجاناً لكل شخص، وسيتم إنشاؤها ليس بواسطة الخبراء والمحررين الذين يعملون مقابل أجر، ولكن بواسطة أي شخص يريد المساهمة. بدأ "ويلز" بعشرات قليلة من المقالات المكتوبة مسبقاً وبرمجيات تطبيق اسمها ويكي (الاسم مستوحى من كلمة من جزيرة هاواي تعني "سريع") تتيح لأي شخص له إمكانية الوصول إلى الشبكة العالمية "الويب" الذهاب إلى موقع والقيام بتحريره، أو إلغائه، أو الإضافة إليه، وكان الطموح هو أنه لا يوجد شيء يحول دون إنشاء مستودع من المعرفة تجاري مكتبة الإسكندرية القديمة.

ومن نافلة القول إن هذا المشروع كان مثيراً للجدل.

فمن جهة لم تكن هذه هي الطريقة التي يجب أن تكون الموسوعات عليها، فمنذ البداية كان جمع المعرفة الموثوق بها والجديرة بالاعتماد من عمل العلماء. وقد بدأت من أفراد قليلين متعددي الجوانب الثقافية تجرؤوا على عمل المستحيل. ففي اليونان القديمة قام "أرسطو" الفيلسوف بمفرده بتسجيل كل أنواع المعرفة في زمنه، وبعد مرور أربعمائة سنة قام النبيل الروماني "بليني" الكبير السن بتأليف سبعة وثلاثين مجلداً حوت معارف عصره، وقد كتب العالم الصيني "تو يو" موسوعة بمفرده في القرن التاسع، وفي العام ١٧٠٠م قام "ديدوت" وحفنة من أصحابه (بينهم فولتير و روسو) بجهد استمر لفترة تسعة وعشرين عاماً لتأليف موسوعة.

شيئاً فشيئاً تطور العمل الفردي إلى عمل يضم مجموعات أكبر وخصوصاً بعد ظهور الثورة الصناعية، في أواخر القرن الثامن عشر بدأ عددٌ من الأفراد في عهد حركة التنوير الفلسفية في أسكتلندا تطبيق المبادئ الصناعية للأداة العلمية ودروس خطوط التجميع على تأليف موسوعة لم يرَ العالم مثلها من قبل. بلغ حجم الموسوعة البريطانية في إصدارها الثالث، التي نشرت بين العام ١٧٨٨م والعام ١٧٩٧م ثمانية عشر مجلداً مع ملحق من مجلدين، وبلغ العدد الإجمالي للصفحات ١٦,٠٠٠ صفحة. تم تعيين مجموعات من الخبراء لكتابة مقالات علمية تحت إدارة مدير ويتم تنظيمهم عن طريق جدول زمني مفصل.

أدخل "ويلز" حالياً نموذجاً جديداً هو العمل الجماعي المفتوح، فبدلاً من تعيين شخص واحد ذكي أو عدد من الأفراد الأذكياء المختارين بعناية ترتكز "ويكيبيديا" على عشرات الألوف من الناس من كل الأنواع تتراوح أنواعهم من الخبراء الحقيقيين إلى الأشخاص العاديين المهتمين مع الكثير من أمناء المكتبات المتطوعين العاملين في متابعة المقدمات ومراقبة التقدُّم. وفي موسوعة ويكيبيديا، فإن ٥٠,٠٠٠ من أفراد ويكيبيديا الذين يعملون بمفردهم يساوون بليني العجوز.

كما كتب الكاتب "دانيال بينك" قائلاً: "بدلاً عن حدود السلطة الواضحة تعتمد ويكيبيديا على غير المركزية الجذرية والتنظيم الذاتي وهو المصدر المفتوح في أنقى صوره. إن معظم الموسوعات تبدأ في التحجر في اللحظة التي تتم طباعتها ونشرها فيها، إلا أن برمجيات ويكي التي تسمح بالإضافة مع بعض الأيدي المساعدة تتيح لك الحصول على موسوعة قابلة للتحديث وحية تقريباً. إن هذا النموذج من الإنتاج يعطي منتجاً مرناً وسريعاً وقابلاً للتعديل ومجانياً".

في العام ٢٠٠١م بدأت الفكرة منافية للمنطق، ولكن بحلول العام ٢٠٠٥م أصبح هذا المشروع الذي لا يهدف للربح أكبر موسوعة في الكون. تقدم ويكيبيديا أكثر من مليون مقال باللغة الإنجليزية بالمقارنة مع الموسوعة البريطانية التي تقدم ٨٠,٠٠٠

مقال وموسوعة إنكارتا بعدد ٤,٥٠٠ مقال التي يشترك فيها أكثر من ٢٠,٠٠٠ مساهم. وبإضافة ٧٥ من اللغات الأخرى بما فيها لغة الإسبرانتو واللغة الكردية، فإن إجمالي عدد مقالات موسوعة ويكيبيديا تبلغ ٣,٥ مليون مقال.

إن كل ما تحتاج لأن تسهم به في ويكيبيديا هو إمكانية الوصول إلى شبكة الإنترنت، ولكل معلومة مدخلة زر يسمى "تحرير هذه الصفحة" وهو متوافر للجميع. إن كل فرد منّا خبير في شيءٍ ما، ويكمن الجمال في موسوعة ويكيبيديا أنه لا يوجد مجال ضيق لا تستوعبه الموسوعة، إن هذا مناقض تماماً لفكرة الموسوعة البريطانية، فإذا فتحت الموسوعة العظيمة ولم تجد شيئاً عن الموضوع الذي تبحث عنه، أو إذا بدأ الموضوع المكتوب ناقصاً، فليس هناك الكثير مما تستطيع عمله، هزّ قبضة يدك، أو قُمْ بكتابة خطاب إلى المحرر (مع توقع عدم تسلُّم أي استجابة). أما مع ويكيبيديا فتستطيع إصلاح الموضوع أو إنشاءه بنفسك. إن هذا التحوُّل من الامتعاض السلبي إلى المساهمة الفعَّالة يجعل الفرق كبيراً، ولإعادة صياغة النكتة القديمة عن الطقس التي تقول إن كل شخص يشتكي من الطقس؛ ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً حياله، فإن كل شخص يشتكي من الموسوعات؛ ولكنه يستطيع الآن أن يفعل شيئاً حيال ذلك.

عصر الاحتمالات

قِيل الكثير عن حقيقة "عدم موثوقية" المعلومات المدخلة في موسوعة ويكيبيديا وهي طريقة أخرى للقول بأنها ليست دقيقة، إن هذا مؤكد، إذ إن أي شخص يمكنه كتابة هذه المعلومات، وعلى عكس الموسوعة البريطانية التي تتم فيها مراجعة كل المعلومات بواسطة أفراد مسؤولين محترفين، فإن كل معلومة تأتي ببساطة إلى موسوعة ويكيبيديا عن طريق زر "حَرِّرْ هذه الصفحة".

في أواخر العام ٢٠٠٥م كتب "جون سيجيمثالر" في صحيفة "*يو إس أيه توداي*" حول المعلومات المدخلة الخاصة به في موسوعة ويكيبيديا التي بدأت بالشكل الآتي:

كان جون سيجيمثالر مساعداً لوكيل النيابة العام روبرت كينيدي في بدايات الستينات. ولفترة وجيزة كان ينظر إليه على أنه متورط بشكل مباشر في اغتيالات كل من الرئيس "جون كنيدي"، وأخيه "بوبي"، إلا أنه لم يتم إثبات أي شيء مطلقاً.

وبجانب الجزء المتعلق بكونه مساعداً لروبرت كنيدي في الستينات كان كل شيء تقريباً آخر في مقالته خطأ وملفقاً. اتصل جون سيجيمثالر بويلز وطلب منه إلغاء الموضوع (بالرغم من أنه كان بإمكانه أن يفعل ذلك بنفسه بكل سهولة)، إلا أن ذلك الموضوع قاد إلى جدل وطني حول ما إذا كان بالإمكان الوثوق في موسوعة ويكيبيديا وهو سؤال لا يزال مستمراً حتى اليوم.

إن الإجابة لا تتمحور ببساطة في "نعم" أو "لا"؛ لأن طبيعة المحتوى الذي يتم إنشاؤه ذاتياً غير مرتب على المستوى الدقيق وهو المستوى الذي نجربه فيه بالعادة ولكنه ناجح بشكل مدهش على مستوى الصورة الكبيرة، كل ما هناك هو أننا يجب أن نفهمه على ما هو عليه.

إن ويكيبيديا مثلها مثل قوقل والحكمة المجتمعة لملايين المدونات تعمل على منطق إحصائيات الاحتمالات، وهو موضوع يرتكز على الاحتمالية وليس على اليقين، إلا أن عقولنا لا تفكر بالإحصائيات والاحتمالات، فنحن نريد أن نعرف ما إذا كانت هذه المعلومة في الموسوعة صحيحة أم خطأ، إننا نريد أن نعرف أن هناك يداً حكيمة (من المفضل أن تكون يداً إنسانية) هي التي تقود نتائج قوقل، إننا نريد أن نثق فيما نقرأه.

عندما يكون المحترفون من محررين وأكاديميين وصحفيين هم المسؤولون، فإننا نعرف على الأقل بأنها واجب شخص ما للبحث عن الدقة، إلا أننا نعتمد أكثر وأكثر على أنظمة حيث لا يكون المسؤول إنساناً والمعلومات تظهر عفوياً، وأن أنظمة

الاحتمالات هذه ليست كاملة، إلا أنه يتم تحسين فاعليتها لتكون ممتازة مع الوقت والأعداد الكبيرة، إنها مصممة لكي تتحسن مع الحجم وما ندفعه عند المستوى الدقيق هو سعر مثل هذه الكفاءة عند المستوى الكبير.

ولكن كيف يكون ذلك صحيحاً حينما يبدو موغلاً في الخطأ؟

ويصعب على البعض هضم هذه المقايضة، وهذا هو السبب في أننا لا نزال نتجادل حول داروين، وكيف أن حكمة *الحشود* وهو كتاب "جيمس سوروفسكي" حول أيادي "جون سميث" الخفية، وكيف أن العديدين يكونون أذكى من القلة لا يزال مدهشاً (ولا يزال يحتاج لقراءته) بعد أكثر من مائتي سنة من وفاة الأسكتلندي العظيم. إن كلاً من اقتصاد السوق والتطور هي أنظمة احتمالات تتعارض مع عقولنا، إن حقيقة أن عدداً قليلاً من الأشخاص الأذكياء الذين اكتشفوا هذه الحقيقة واستخدموا هذه البصيرة لبناء أسس اقتصادنا الحديث من أسواق المال إلى قوقل هي دليل على أن برمجيتنا العقلية (معرفتنا الجماعية المشتركة) قد تطور أسرع من برمجياتنا (أسلاكنا العصبية).

إن الأنظمة المرتكزة على الاحتمالات هي كما قال عنها الكاتب "كيفن كيلي" "خارجة عن السيطرة". وينظر كتابه الذي يحمل ذلك العنوان على مثال بعد مثال من الديمقراطية إلى تجمع الطيور حيث يخرج الترتيب مما يظهر وكأنه فوضى. إن كتابه يزيد على اثنتي عشرة عاماً وبعد عقود من الآن سنجد أن هذه البصيرة لا تزال مدهشة إلا أنها صحيحة.

هل يمكن الوثوق بموسوعة ويكيبيديا؟ حسناً، الإجابة "لا"؛ ولكن في الحقيقة ما الذي يمكن الوثوق به؟ تتم مراجعة الموسوعة البريطانية بواسطة مجموعة صغيرة من المراجعين حاصلين على درجات أكاديمية عالية في المتوسط. ومن المؤكد، فإن هناك أنسجة أقل (إذا كانت موجودة أصلاً) مما هو في موسوعة ويكيبيديا، إلا أنها ليست معصومة من الخطأ أيضاً. وفي الحقيقة في دراسة جاءت في مجلة "نيتشر" العلمية أن هناك أربعة أخطاء في المتوسط في كل معلومة مدخلة في موسوعة ويكيبيديا، وثلاثة أخطاء في

الموسوعة البريطانية، وبعد وقتٍ قصيرٍ من ظهور التقرير تم تصحيح الأخطاء في موسوعة ويكيبيديا بينما لا يزال على الموسوعة البريطانية أن تنتظر إلى حين إعادة نشرها.

إن أكبر أخطاء *الموسوعة البريطانية* تتمثل في الإسقاط والإغفال، وتكون ضحلة في بعض المعلومات المدخلة ومنتهية الصلاحية في الكثير من بعضها الآخر، وهناك الملايين من المعلومات المدخلة التي لا يمكن لها أن تتضمنها بينما يمكن لموسوعة ويكيبيديا أن توسِّع نفسها لتضم المزيد والمزيد من المعلومات المدخلة والمواضيع كما يتم تحديثها باستمرار.

إن ميزة أنظمة الاحتمالات هي أنها تستفيد من حكمة المجموعات أو الحشود، ونتيجة لذلك يمكنها أن تتوسع في العرض والعمق، ولكن لأنها تفعل ذلك بالتضحية باليقين التام على المستوى الدقيق، فلا بد من أخذ أي نتيجة مع بعض المرارة. يجب أن تكون ويكيبيديا أول مصدر للمعلومات وليس الأخير، ويجب أن يكون موقعاً لاستكشاف المعلومات وليس المصدر الأكيد للحقائق.

إن الشيء نفسه ينطبق على المدونات وليس بينها مدونة واحدة يمكن الوثوق بمعلوماتها، ومن الخطأ التعميم حول نوعية وطبيعة محتوياتها التي هي أصلاً متغيرة ومختلفة، إلا أن المدونات بشكل مجتمع تثبت أنها أكثر من منافس لوسائل الإعلام الكبرى، إلا أنه يتوجب عليك أن تقرأ أكثر من واحدة منها قبل أن تقرر.

وينطبق الشيء ذاته على قوقل الذي يبدو أنه غير محدود المعرفة ومبهماً، وهو يقوم بعمل ترابطات على مستوى ضخم لا يمكننا أنا وأنت أن نفهمها. من المحتمل أن قوقل هي أول شركة تُولد وذكاؤها الأجنبي لإحصائيات شبكة الويب العالمية ذات الحجم الضخم مضمنة فيها، وذلك السبب في أنها ناجحة للغاية وتبدو وكأنها لا يمكن إيقافها.

يكتب المؤلف بول جراهام عن هذا الموضوع كالآتي:

تملك شبكة الويب حبيبات معينة، وتبدو قوقل متوافقة بشكل طبيعي مع تلك الحبيبات، وذلك هو السبب الذي يجعل نجاحها يأتي بدون مجهود. إنهم يبحرون مع الرياح بدلاً عن الجلوس والتفكير من أجل نموذج عمل مثل عالم الطباعة، أو محاولة الإبحار عكس الرياح عن طريق مقاضاة عملائهم مثل مايكروسوفت وشركات الأسطوانات. إن قوقل لا تحاول إجبار الأشياء كي تحدث حسب طريقتهم، بل يحاولون أن يعرفوا ما يحدث ويرتبوا أمورهم لكي يكونوا هناك عندما تحدث.

إن شبكة الويب هي السوق النهائي للأفكار تحكمه قوانين الأعداد الكبيرة. وتلك الحبيبات التي يراها جراهام هي نسيج لآليات الإحصائيات، وهو المنطق الوحيد الذي تفهمه مثل هذه الأنظمة الضخمة، ومن المرجح أننا سنفعل ذلك أيضاً في يوم من الأيام.

قوة إنتاج الزملاء

إذا أخذت ككل، فمن المرجح أن ويكيبيديا هي أفضل موسوعة في العالم، فهي أكبر ويتم تحديثها وفي كثير من الحالات أعمق حتى من الموسوعة البريطانية، ولكن في مستوى المعلومة المدخلة الفردية تتغير النوعية، وجنباً إلى جنب مع المقالات العلمية التي تحبس الأنفاس والمواضيع التعليمية هناك العديد من المواضيع العادية وحتى الفيروسات الناتجة تلقائياً.

وفي الموضوعات المحبوبة تبدي ويكيبيديا مقاومة جيدة للمعارك الفكرية. وجدت دراسة أجرتها IBM أن متوسط إصلاح الضرر في مواضيع ويكيبيديا ذات الحساسية العالية مثل الإسلام تقل عن أربع دقائق. إنه ليس عمل مراقبي الموسوعات المحترفين، ولكنه ببساطة السلوك الناتج لمجموعة من الأمناء ذاتيي التعيين من الهواة

والـمحترفين، وبينما تنمو ويكيبيديا، فإن خاصية الإصلاح الذاتي ستنتشر إلى المزيد من الموضوعات.

إن النقطة التي يجب التركيز عليها هي أن كل معلومة مدخلة في ويكيبيديا ليست إحصائية، إلا أن الموسوعة بالكامل تتصرف إحصائياً. إن إمكانية الحصول على معلومة مدخلة تم تحديثها ودقيقة لأي موضوع في ويكيبيديا هي إمكانية ممتازة حتى لو كانت كل معلومة مدخلة فردية غير ممتاز.

ولصياغة ذلك بطريقة مختلفة، فإن مدى الجودة في *الموسوعة البريطانية* يتراوح من ٥ إلى ٩ مثلاً مع متوسط يبلغ ٧، بينما يتراوح في ويكيبيديا من صفر إلى ١٠ مع متوسط ٥. ولكن لأن هناك معلومات مدخلة في ويكيبيديا تبلغ عشر مرات ضعف المعلومات المدخلة في *الموسوعة البريطانية*، فإن فرص الحصول على معلومة مدخلة معقولة حول الموضوع الذي تبحث عنه هي في الحقيقة فرص أعلى في ويكيبيديا.

إن ما يجعل ويكيبيديا استثنائية حقاً هو أنها تتحسن مع مرور الوقت، حيث تشفي نفسها عضوياً مستخدمةً جهازها الضخم المتنامي اليقظ دائماً والسريع في الاستجابة إلى أي شيء يهدده، ومثله مثل نظام حيوي (البيولوجي)، فإنه يتطور ويختار من الصفات التي تساعده على البقاء في مواجه مهاجميه المفترسين ومسببات الأمراض في نظامه البيئي.

إن هناك عملية تقليدية لإنشاء موسوعة يقوم فيها المحترفون من المحررين والكُتاب الأكاديميين والمراجعين الزملاء بمحاولة الوصول إلى الكمال، ونادراً ما تصل إليه، إلا أن السعي وراء الدقة والوضوح ينتج عنه عمل متوافق يمكن الاعتماد عليه. وبالمثل لمعظم المنتجات الأخرى لصناعة النشر المحترفة، فإن الشخص يتوقع بأن يكون الكتاب مطبوعاً على كلتا صفحتيه في الأماكن المخصصة لها، وإن هجاء الكلمات سيكون صحيحاً، أي أن هناك سقفا واحداً للجودة والنوعية لا يجب أن يقل الكتاب عنهما.

أما مع أنظمة الاحتمالات، فإن هناك مستوى إحصائياً من الجودة، بعض الأشياء ستكون عظيمة، وبعض الأشياء ستكون وسطاً، بينما ستكون بعض الأشياء رديئة للغاية، وهذه هي بالضبط طبيعة الوحش. إن خطأ معظم النقاد هو أن يتوقعوا خلاف ذلك. إن ويكيبيديا هي ببساطة كائن مختلف عن الموسوعة البريطانية، إنها مجتمع حي بدلاً عن كونها عملاً مرجعياً ساكناً.

إن معجزة ويكيبيديا الفعلية تمكن في النظام المفتوح لنظام الإسهام والتحرير من المستخدمين الهواة بحيث إن هذا النظام لن يتهاوى في فوضى، بدلاً عن ذلك نجحت ويكيبيديا نوعاً ما في تنظيم ذاتها في أن تصبح أكبر موسوعة شاملة في التاريخ. لقد عكس مؤسس ويكيبيديا "جيمي ويلز" سهم ضابط التغيير بوضعه القليل من المعلومات المدخلة الأولية وآلية للآخرين للإضافة عليها مما نتج عنه بالفعل النظام والترتيب من وسط الفوضى.

أصبحت النتيجة نوعاً مختلفاً للغاية من الموسوعات وهي موسوعة لا تحدها قيود المساحة والإنتاج، فهي تُعطي كل إدخالات المعلومات المتوقعة لأي عمل مرجعي عالمي ثم مئات الألوف من المعلومات غير المتوقعة التي تتراوح بين مقالات عن تناسب الكتب الدراسية الجامعية المتعمقة في مجالات مثل ميكانيكا الكميات إلى السير الذاتية حول شخصيات الكتب الكوميدية، أو بكلمات أخرى تملك الموسوعة كل الأعمال الناجحة بالإضافة إلى عددٍ ضخمٍ من المواضيع اللائقة الأخرى.

إن النموذج التقليدي للموسوعة هو قائمة من المعارف الثقافية، وهذه هي القاعدة الأساسية التي يجب أن يعرفها المسؤولون. هناك معلومات مدخلة أخرى ذات أطوال متناقصة قد يقرر فيها مسؤولو الموسوعة البريطانية "إن هذا الحد كافٍ وبعد هذا الحد، فإن الموضوع لا يستحق". هنا تنتهي الموسوعة الكلاسيكية التقليدية، أما موسوعة ويكيبيديا من ناحية، فإنها تستمر وتستمر.

من ناحية، يمكن التفكير في ويكيبيديا على أنها مساوية لرابسودي موقع الموسيقى، في ذلك ويكيبيديا تجد أفضل ١,٠٠٠ معلومات مدخلة يمكن أن تجدها في أي موسوعة، وتتراوح من يوليوس قيصر والحرب العالمية الثانية إلى الإحصائيات إلخ، وهذه مثل أكثر الأغاني شعبيةً. في هذا المجال تتنافس ويكيبيديا مع موسوعات المحترفين في أفضل حالاتهم الذين ينتجون معلومات مدخلة مكتوبة بشكل ممتاز التي تنشر المعلومات الحقائق بكل يسر وسهولة التي تأتي بمجهود علمي كبير. إن الميزة الأساسية لنموذج ويكيبيديا التي ينشئها المستخدمون لهذه المعلومات المدخلة هي قدرتها على تحديث المعلومات، وأن يكون طولها غير محدود، وأن تتضمن المساعدة البصرية (مثل الصور الفوتوغرافية والجداول البيانية)، وأن تتضمن العديد من الروابط لدعم المواد، وبالطبع تمثيل الآراء البديلة والاختلافات.

في منتصف المنحنى من الألف معلومة المدخلة إلى حيث تنتهي الموسوعة البريطانية عند ٨٠,٠٠٠ معلومة مدخلة هي المواضيع الأكثر تحديداً مثل الجراحة القيصرية، وأوكيناوا، وتحليل الارتداد ...إلخ، هنا يبدأ نموذج ويكيبيديا في التقدم على منافسيه المحترفين. إن وجود المساحة غير المحدودة يعني أن المعلومات المدخلة في ويكيبيديا تميل إلى أن تكون أطول وأشمل، بينما يكون طول المعلومات المدخلة في الموسوعة البريطانية هو ٦٧٨ كلمة، فإنَّ أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ من المعلومات المدخلة في ويكيبيديا (وهي تساوي موسوعتين كاملتين من الموسوعة البريطانية) أطول من ٦٧٨ كلمة. وفي الأوقات نفسها، فإن الروابط والمعلومات المحدثة تمثل ميزة إضافية حيث تصبح ويكيبيديا مكاناً للقيام بالمزيد من البحوث.

ثم هناك الطرف من ٨٠٠,٠٠٠ إلى مليون واحد. هذه المعلومات المدخلة هي التي تملكها ويكيبيديا والموسوعات الأخرى لا تحاول حتى أن تقوم بتضمينها. وتُعد مقالاتها مثل شفرة قيصر، والفيروسات المعلبة، ومعامل ارتباط سبيرمان من بين الأفضل في ويكيبيديا (وهي مكتوبة بواسطة خبراء مخلصين) إلى الأسوأ (مثل الترويج للذات، أو

تصفية بعض الحسابات الشخصية)، وبينما يركز الكثيرون من النقاد على أسوأ المعلومات المدخلة، فإن الشيء المهم حقاً حول طرف ويكيبيديا هو ألا شيء يضاهيها في أي مكان. وتدخل ويكيبيديا من العلوم إلى أحدث المنتجات لا تدخل فيها الموسوعات الأخرى نسبة إلى قيود الصفحات الورقية، أو أقراص دي في دي DVD. إن الموسوعة البريطانية ليس لديها معلومات مدخلة عن ظاهرة الطرف الطويل (حتى الآن)، بينما نجد أن معلومات ويكيبيديا المدخلة عن هذا الموضوع ليست مكتوبة بشكل جيد وشامل فقط، ولكن يبلغ عدد كلماتها ١,٥٠٠ (وليس أي منها مكتوباً بواسطتي).

يميل مؤلفو ويكيبيديا أن يشتركوا بحماس وتحرر وتحفيز بواسطة الفرصة لتحسين الفهم الجماهيري لبعض المواضيع التي يعرفونها ويحبونها وهو جمهور تضاعف في خمس سنوات فقط بمشاركة الهواة المفوضين الذين يستخدمون أدوات بسيطة حديثة التعميم لإنتاج الموسوعة، وهي متصفح الويب والتوصيل مع الإنترنت.

هذا هو عالم "إنتاج الزملاء" الظاهرة الاستثنائية لعمل المتطوعين والهواة الجماعي التي قام الإنترنت بتمكينها. إننا على مشارف عصر يعمل فيه معظم المنتجين من دون أجر، والفرق الرئيس بينهم وبين رفقائهم المحترفين هو ببساطة الفجوة (المتناقصة) في الموارد المتاحة لهم لتوسيع طموح عملهم. عندما تتوافر أدوات الإنتاج لكل فرد، فإن كل فرد يصبح منتجاً.

اقتصاد السمعة

لماذا يفعلون ذلك؟ لماذا ينشئ أي شخص شيئاً ذا قيمة (من موضوع في موسوعة إلى مراقبة فلكية) بدون خطة تجارية أو حتى احتمال استرداد القيمة؟ إن هذا السؤال مهم في فهم هذا النوع من المشاريع (الطرف الطويل)، ويعود السبب جزئياً في أن جزءاً كبيراً، مما يشغل المنحنى لا يبدأ بهدف تجاري، والأكثر أهمية هذا السؤال مهم لأنه يمثل مثالاً آخر عن الاتجاه الذي يجب أن يكون فيه إعادة التفكير في افتراضاتنا المسبقة

حول الأسواق. إن دوافع الإنشاء ليست هي نفسها في الرأس كما هي في الطرف فنموذج اقتصادي واحد لا يناسبها جميعاً. ويمكنك التفكير في الطرف الطويل على أنه يبدأ كاقتصاد نقدي تقليدي عند الرأس وينتهي كاقتصاد غير تقليدي عند الطرف، وفيما بين الاثنين يكون هذا الاقتصاد خليطاً منهما الاثنين.

عند الرأس، حيث تستفيد المنتجات من القنوات القوية لكنها الغالية للتوزيع على نطاق واسع وقانون الاعتبارات التجارية، وهذا هو ميدان المحترفين وبقدر ما يحبون ما يفعلونه، إلا أنها وظيفة أيضاً، إن تكاليف الإنتاج والتوزيع عالية للغاية لكي تدع الاقتصاد يأخذ مقعداً خلفياً نحو الإبداع، فالمال هو الذي يدفع العملية.

ونحو الطرف، حيث تكون تكاليف الإنتاج والتوزيع منخفضة (ويعود الفضل في ذلك إلى قوة تعميم التقنيات الرقمية)، فإن الاعتبارات التجارية تكون في الغالب ثانوية، وبدلاً عن الاعتبارات التجاري، فإن الناس يبدعون للكثير من الأسباب الأخرى مثل التعبير والاستمتاع والتجربة وهكذا. إن السبب الذي قد يدعوه الشخص اقتصاداً أصلاً هو أن هناك وجهاً آخراً للعملة يكون محفزاً بقدر ما يكون المال محفزاً وهذا الوجه الآخر هو السمعة، وإذا قسنا السمعة بمقدار الاهتمام الذي يلقاه المنتج فمن الممكن تحويل السمعة إلى أشياء أخرى مثل القيمة والوظائف والجمهور والملكية والعروض المغرية من كل الأنواع.

يدعو "تيم وو" وهو بروفيسور في القانون في جامعة كولومبيا هذا "ثقافة العرض" ومستخدماً المدونات كمثال يكتب التالي:

> تعكس ثقافة العرض فلسفة الشبكة العنكبوتية "الويب"، التي تعتبر أن الحصول على الاهتمام والملاحظة هو كل شيء، ويرتبط مؤلفو الشبكة العنكبوتية "الويب" مع بعضهم بعضاً ويقتبسون بحرية وفي بعض الأحيان يأخذون الملحوظات عن مقالات بالكامل، ويرتبط البريد الإلكتروني بالمقالات المفضلة وأصبحت

النكات جزءاً من ثقافة العمل الأمريكية كما مبردات المياه، إن الخطيئة الكبرى في ثقافة العرض هي عدم النسخ ولكن بدلاً عن ذلك الفشل في أن تعزو حقوق التأليف بشكل صحيح وفي قلب ثقافة التعرض هذه توجد محركات البحث. وإذا كان من السهولة إيجاد موقعك في قوقل، فإنك لا تقاضي بل تحتفل.

عندما تفكر في المنحنى على أنه مأهول بالأشخاص المبدعين الذين تحدوهم حوافز مختلفة فمن السهل توسيع ذلك إلى اهتماماتهم في الحقوق الفكرية أيضاً. قد تكون ديزني وميتاليكا تفعلان كل ما بوسعهما في توسيع الحقوق الفكرية، إلا أن هناك الكثير من الفنانين والمنتجين الذين يرون التوزيع الحر من زميل إلى زميل على أنه تسويق منخفض التكلفة، ويستطيع الموسيقيون تحويل ذلك إلى جمهور لعروضهم الحية ويعامل الأكاديميون بحوثهم العلمية كطريقة لزيادة تأثيرهم وجمهورهم.

إن كل وجه من هذه الأوجه يغيِّر الكيفية التي يشعر بها المنتجون المبدعون حول حقوق الطبع، ففي أعلى المنحنى تدافع استديوهات السينما وشركات الموسيقى الرئيسة والناشرون عن حقوقهم الفكرية بضراوة، وفي الوسط توجد مجالات شركات الموسيقى المستقلة والعملية الأكاديمية وهي منطقة رمادية، وفي الأسفل نحو الطرف يقوم عدد متزايد من المنتجين المبدعين في المنطقة غير التجارية بالتخلي عن بعض من حماية حقوق الطبع الخاصة بهم. ومنذ العام ٢٠٠٢م كانت منظمة غير ربحية تدُعى (المبدعون العالميون) تصدر الرخص بالاسم نفسه لتتيح الاستخدام المرن لبعض الأعمال المحمية بالحقوق الفكرية لأجل القيمة الأكبر (لمبدعي المحتوى) للتوزيع المجاني، وإعادة توزيع الموسيقى وأفكار الانتشار من زميل إلى زميل آخر، والاهتمامات، والشهرة (بالطبع لقد فعلت ذلك في مدونتي لكل الأسباب المذكورة أعلاه).

باختصار، يهتم بعض المبدعين بالحقوق الفكرية، إلا أن بعضهم الآخر لا يهتم بها، ولكن القانون لا يميز بينهما فالحقوق الفكرية تكون ممنوحة تلقائياً ومحمية، إلا إذا

تم التنازل عنها بشكل صريح، ونتيجة لذلك تخفي المخاوف من القرصنة قوة "المجاني" ويتم النظر إليها في الغالب بالشكوك على الأقل لأنها تعيد ذكريات الشيوعية وشعارات الهيبيز.

ولكن بغض النظر عن ذلك، فهي شيء بدأنا في إعادة التفكير والاعتبار فيه بينما تصبح قيمة "اقتصاد الهدية" واضحة في كل شيء من مجال المدونات إلى المصادر المفتوحة. في جزء من حياتي المهنية (المجلة التي تصدر ٦٠٠,٠٠٠ عددا التي أقوم بتحريرها) أكون قريباً من رأس المنحنى، وفي مجال آخر (مدونتي التي يبلغ عدد قرائها ٥,٠٠٠) أكون عند طرف المنحنى ويكون قراراي حول الملكية الفكرية مختلفة في كل واحد منهما. وفي يوم من الأيام الذي آمل أن يأتي سريعاً أن يعكس السوق والتنظيم هذه الحقيقة بشكل أكثر دقة.

النشر الذاتي دون خجل

إننا نفكر في الكتب عبر عدسة تجارية مفترضين أن معظم المؤلفين يودون كتابة أفضل الكتب بيعاً والحصول على ثروة طائلة، إلا أن الواقع الذي يقول بأن الغالبية العظمى من المؤلفين لن يكتبوا أفضل الكتب بيعاً بل لا يحاولوا تأليف كتب ذات رواج جماهيري كبير، يتم نشر ٢٠٠,٠٠٠ كتاب تقريباً باللغة الإنجليزية كل عام، ويتمكن عدد أقل من ٢٠,٠٠٠ كتاب في أن تُعرض في المكتبات المتوسطة ومعظمها لن تُشترى.

في عام ٢٠٠٤م بيعت ٩٥٠,٠٠٠ من أصل ١,٢٠٠,٠٠٠ كتاب تتبعها "نيلسون لمتابعة الكتب" أقل من خمس وتسعين نسخة، وهناك ٢٠٠,٠٠٠ أخرى بيعت أقل من ١,٠٠٠ نسخة وفقط ٢٥,٠٠٠ كتاب بيعت أكثر من ٥,٠٠٠ نسخة. يبيع الكتاب المتوسط في أمريكا ٥٠٠ نسخة، وبكلمات أخرى، فإن حوالي ٩٨ في المائة من الكتب ليست تجارية سواء كان القصد منها تجارياً أو لا.

عند السعي وراء القبول الواسع من السوق يتطلب القبول بحل وسط، أي الاستعداد لتناول موضوعات ذات اهتمامات واسعة بدلاً عن اهتمامات ضيقة والكتابة بطريقة تثير الجدل وليست علمية. لا يستطيع معظم المؤلفين عمل ذلك كما أن الكثيرين الآمرين لن يفعلوه. وبدلاً عن ذلك، فإن الغالبية العظمى من المؤلفين يختارون إتباع شغفهم بالكتابة والافتراض بأنهم لن يحققوا أرباحاً، ولا يرغب الكثيرون في أكثر من أن تتم قراءة كتبهم بواسطة بعض المجموعات الذين يهمهم أمرهم من زملائهم إلى الأشخاص الآخرين.

إن مثل هذا النشر الذي لا يهدف إلى الربح قد يحقق مكاسب أيضاً؛ فالكتاب لا يصبح منتجاً ذا قيمة ولكن الإعلان عن منتج ذي قيمة أي المؤلفين أنفسهم، ينظر إلى العديد من هذه الكتب غير التجارية كأدوات للتسويق يُقصد به تعزيز السمعة الأكاديمية للمؤلفين، وتسويق استشارتهم وإكسابهم رسوم إلقاء الخطب والكلمات أو فقط لترك بصماتهم في العالم. وعند النظر إليه بتلك الطريقة، فإن النشر الذاتي ليس وسيلة لجني الأموال ولكنه طريقة لنشر الرسالة.

وللحصول على لمحة عن ذلك العالم دعونا نتفكر في موقع "لولو دوت كوم" وهو نوع جديد من الناشرين الذاتيين. يمكن لموقع "لولو" بأقل من مائتي دولار ليس فقط تحويل كتاب إلى مطبوع بورق عادي أو ورق مقوي وإعطائه رقم الكتاب الدولي بل التأكد من إدراجه مع شركات البيع بالقطّاعي على شبكة الإنترنت، وبمجرد إدراج الكتاب على القائمة، فإنه سيتوفر لجمهور يبلغ الملايين، ومن المحتمل أن يكون موجوداً جنباً إلى جنب مع كتب هاري *بوتر* إذا هبت رياح محركات التوصية في ذلك الاتجاه، ومع هذا الموقع تتم طباعة الكتاب بأعداد صغيرة وتتم إضافة أعداد حسب الحاجة بالطباعة عند الأمر بذلك. هذا تحسُّن مذهل على نموذج النشر الثاني التافه، أي النشر بسبب الفخر والغرور الذي كان سائداً قبل عدة سنوات، ونتيجة لذلك فإن الآلاف من المؤلفين يختارون هذه الطريقة الآن.

فيما يلي قائمة أفضل خمسة كتب مبيعاً في موقع "لولو" في هذه اللحظة:

١- الأطعمة الطازجة للأشخاص المشغولين: وصفات بسيطة لا تدخل فيها الماكينات للحياة اليومية.

٢- كلاب الهافانا (كتيب لمالكي كلاب الهافانا ومن يقومون بتربيتها وعشاقها).

٣- تقصي علم الأحياء - كتيب المختبر الخاص بـ BIO 100 الطبعة ١٢.

٤- SAT القصوى.

٥- كيف تبدأ العمل التجاري لتخطيط الزواج.

بيع أي كتاب من هذه القائمة بين ٥,٠٠٠ إلى ٥٠,٠٠٠ نسخة، وهو شيء جيد. تذهب ثمانون في المائة من هذه المبيعات بشكل مباشر إلى المؤلفين مقارنةً بنسبة ١٥ للناشرين التجاريين العاديين، وهذا رد كافٍ على مَنْ يقولون إن النشر الذاتي هو للخاسرين.

بالرغم من ذلك، فإن معظم المؤلفين لا يستخدمون خدمات النشر الذاتي لجني الأموال، كما أنهم لا يتوقعون نجاحات مدوِّية، إلا أن الغالبية العظمى من آلاف عملاء "لولو" الآخرين يختارون النشر الذاتي؛ لأنهم يعرفون أن ما يكتبونه ليس من المحتمل أن يُباع بدرجةٍ كافيةٍ للقيام ببحث عن شركات نشر تجارية.

قبل عدة سنوات لم يكن هؤلاء المؤلفون ليتمكنوا من النشر مطلقاً، وكان ذلك السبب كافياً ليحجم الكثيرون منهم عن تأليف الكتاب في المقام الأول، ولكن اليوم انخفضت اقتصاديات النشر إلى درجة كبيرة تُمكّن أي شخص من القيام به، ويعني ذلك أن باستطاعة الناس تأليف الكتب للأسباب التي تناسبهم ولا يحتاجون إلى الاعتماد على ناشر ليحدد لهم ما إذا كان الكتاب يستحق التسويق أم لا.

هذا التأثير أصبح محسوساً في جميع أرجاء الصناعة وصولاً إلى شركات بيع الكتب العملاقة. في العام ٢٠٠٥م باعت "بارنز"، و"نوبل" كتباً ذات عناوين متخصصة بنسبة تزيد على ٢٠ في المائة عن مبيعات عام ٢٠٠٤م، وهو شيء يعزوه كبير مديريها التنفيذيين ستيف ريجو إلى ثلاثة أسباب:

١- كفاءة النشر عند الحاجة التي تحتفظ بالمزيد من الكتب تحت النشر.

٢- زيادة عدد الناشرين الصغار المستقلين.

٣- النشر الذاتي.

ويقول ستيف "خلال السنوات القليلة القادمة، إن "الكتاب المطبوع" سيصبح ذا معنى أقل، والأفراد سيستخدمون الإنترنت بشكل متزايد كمرحلة أولى لنشر أعمالهم سواء كانت كتباً أو قصصاً قصيرةً أو مقالات حول مجالات خبراتهم، وسوف يتحول أفضل هذه الأعمال إلى كتب حقيقية. إنني على ثقة حول فرص الصناعة لهذه الكتب؛ لأنه قد بدأت تظهر وسائل جديدة وفعَّالة للنشر، كما أنها تتحسن بسرعة".

إن أحد أكبر الاختلافات بين رأس وطرف المنتجين أنه كلما كنت بعيداً في الطرف كان الاحتمال الأكبر أن تحتفظ بوظيفتك النهارية ولا بأس بذلك، إن التمييز بين المنتجين المحترفين والمنتجين الهواة أصبح أكثر ضبابية، كما أنه في الحقيقية سيصبح في نهاية الأمر ليس ذا صلة. إننا لا نصنع ما يدفعون لنا لنصنعه ولكن أيضاً ما نريد أن نصنعه، ويمكن لكليهما أن تكون له قيمة.

إن ظاهرة "صحافة المواطن" في كوريا الجنوبية التي أُنشئت في العام ٢٠٠٠م بواسطة "أوهمي" للأخبار هي مثال آخر، يقوم حوالي خمسين من المراسلين والمحررين بمعاينة وتحرير وإكمال المقالات الإخبارية المكتوبة بواسطة ما يزيد على ٤٠,٠٠٠ من الهواة من طلاب المدارس الابتدائية إلى البروفسورات، ويقدِّم هؤلاء المتطوعون بين ١٥٠ مقالاً و٢٠٠ مقال في اليوم، وهو ما يمثل ثلثي محتوى أخبار "أوهمي" للأخبار، ويتلقون مقابل ذلك أجراً ضئيلاً، فإذا تم نشر المقال في الصفحة الأولى (والقليل منها يصل إلى ذلك المستوى)، فإن الكاتب يحصل على حوالي ٢٠ دولاراً أمريكياً. لماذا يفعلون ذلك؟ يقول "أوه يوين هو" مؤسس الموقع: إنهم يكتبون مقالات لكي يغيروا العالم، وليس لكسب المال.

يمكن للمنتجين من كافة الأنواع من صانعي الأفلام إلى مؤسسي المدونات الذين يبدؤون عند الطرف بتوقعات قليلة للنجاح التجاري، أن يجازفوا فهم مستعدون للمخاطرة لأن لديهم القليل مما سيخسرونه، فليس هناك حاجة إلى إذن، أو خطة تجارية، أو حتى لرأسمال. إن أدوات الإبداع رخيصة الآن، والذكاء موزع بصورة أوسع مما نعرف، بالنظر إلى الطرف بهذه الطريقة، فإنه يعد بأن يصبح اختباراً للإبداع، ومكاناً تتشكل فيه الأفكار وتنمو قبل أن تتحول إلى شكل تجاري.

دراسة حالة: الجزيرة المنعزلة

إن حجماً واحداً من الحوافز لا ينسجم مع الكل، يقوم الناس بإبداع الأشياء لمختلف الأسباب تتراوح من التعبير إلى السمعة، وما يجعل هذا مهما أن هناك حركة متزايدة دون احتكاك في الطرف الطويل، وفي سوق رقمية متصلة من النغمات الإلكترونية "آي تيون" إلى الشبكة العنكبوتية "الويب" نفسها، فإن المحتوى الذي يبدأ عند القاع يمكن أن يتحرك بسهولة إلى الأعلى إذا عزف على وتر النجاح، ويصبح فهم الحوافز المختلفة التي يمكن أن تحفز هؤلاء المنتجين المبدعين للمحتوى ضرورية في إيجاده وتشجيعه.

أقر "باري ديلر" رئيس المؤسسة الإعلامية آي أيه سي/إنتراكتيف في منتصف عام ٢٠٠٥م أن إنتاج الزملاء مثير للاهتمام، إلا أنه سخر من فكرة أنها قوة يمكن أن تنافس هوليوود وتنبأ بثقة قائلاً: "لا يمكن إزاحة الناس الذين يملكون الموهبة بواسطة ثمانية عشر مليوناً من الناس الذين ينتجون أعمالاً يعتقدون أنه سيكون عليها طلب وإقبال".

ما هي فرص أن يكون محقاً؟ حسناً، إذا أخذنا تعريف "الناس الذين يملكون الموهبة" على أنهم فقط الناس الذين ثبتت قدرتهم على القيام بأعمال تحقق نجاحاً باهراً، فقد يكون ديلر محقاً، ولكن هناك ما هو أكثر من الإبداع من مجرد أعمال هوليوود الناجحة، ويمكن للناس الذين يعزفون على وتر النجاح أن يأتوا من أيِّ طريقٍ وعبره.

ولنأخذ مثالاً "أكيفا شافر"، و"جورما تاكون"، و"آندي سامبرج"، الذين كانوا إلى وقتٍ قريبٍ ينتمون إلى الفئة التي أبعدتها بكفاءة إلى خارج النطاق ماكينة التمييز التي حددها ديلر.

فبعد التخرُّج من الكلية قام الأصدقاء الثلاثة بالذهاب إلى هوليوود والإقامة فيها وانتقلوا إلى منزل كبير منخفض الإيجار في أولمبيك بولفارد وأطلقوا عليه اسم الجزيرة المنعزلة، ثم بدؤوا بعدها في التفكير في كيفية اختراق صناعة الترفيه كفريق كوميدي.

ليس من السهل على كوميدي فرد النجاح في التلفزيون، ولكن الأمر أكثر صعوبةً لفرقة، وبالتأكيد تعثر بسرعة الثلاثة أمام كافة العقبات المعهودة في بحثهم عن عمل، ولكن بدلاً عن أن يُخضعوا أنفسهم للرفض المستمر جرب الثلاثة عملهم الكوميدي الذي أسموه المنزل المنعزل على شبكة الإنترنت، وبعد استعارتهم لبعض معدات الفيديو بدأ طاقم المنزل المنعزل بإنتاج أفلام كوميدية وأغانٍ قصيرة، قام شقيق "شافر" الأصغر، وهو مستشار فني طرح موقعهم على الويب واسمه thelonelyisland.com في العام ٢٠٠١م.

بدأت فرقة المنزل المنعزل بفيديوهات موسيقى راب الولد الأبيض بحس فكاهي، وكما هو الحال - في بعض الأحيان - مع هذا النوع من الكوميديا انتشرت أفلام الفيديو سريعاً على الإنترنت، وحدث ذات مرة أن قام مَنْ يشغل أسطوانات الموسيقى، وهو هولندي بخلطها مع أفلام فيديو أخرى مما زاد من شعبيتها أكثر فأكثر.

بعدها توالى العديد من أفلام الفيديو، وقد شجع الفرقة على ذلك إطلاقهم شرائط الفيديو تحت رخصة الإبداع المشترك التي تتيح إعادة الاستخدام الإبداعي المجاني، وفي سنوات قليلة أضحت فرقة المنزل المنعزل مشهورة على شبكة الإنترنت؛ أي أنها صارت فرقة مشهورة بحساب المشاهدين الذين تخلوا عن وقت مشاهدة التلفزيون لصالح مشاهدة الإنترنت الذين يتصفحون الشبكة باستمرار.

واعتماداً على شهرتهم على الإنترنت قامت الفرقة بكتابة فقرات كوميدية وأدائها مع استمرار عرضهم الأصلي على الإنترنت، كانت أول حلقة بُثت في موعد هام تدعى "بو" حيث يختصر الشباب في ماليبو الاسم إلى بو.

ومع استمرار نجاح الفرقة ذاع صيتهم ووصل إلى أسماع النجمة "تينا فاي" مقدمة برنامج *مساء السبت مباشرة على الهواء* والقائم على العرض "لورن مايكلز". في منتصف عام ٢٠٠٥م طار الثلاثة إلى مانهاتن للقيام بتجارب أداء مع أشهر فريق كوميدي، وقد تم توظيف ثلاثتهم.

في ديسمبر ٢٠٠٥م قام فريق المنزل المنعزل بأداء حلقة أخرى من راب الولد الأبيض التي ارتكزت على فيلم مذكرات نارينا، وبالطبع - وكما هو متوقع - جاءت الأحداث ملتوية ومضحكة للغاية؛ ولأن الفرقة قد ظهرت الآن على شبكة التلفزيون ظهر الاسكتش في بث مساء السبت حيث شاهده الجمهور وضحكوا، وربما نسوا أمره بعد حين.

إلا أن بعض الناس قد سجلوا البرنامج، وحيث إن البعض القليل منهم رأى في اسكتش نارينا لمحة من الذكاء، فقد قاموا بتحميل الفيديو في شبكة الإنترنت، وبعد نجاحه في الانطلاق سمعت شبكة الإرسال الوطنية NBC عن الفيديو ووضعته في موقع SNL الرسمي وحتى في برمجيات الموسيقى التي تدعى iTtunes. وللمرة الثانية انطلق تأثير الفيديو ولكن هذه المرة بدرجة أكبر.

وصف "جيف دارفز" وهو معلّق في وسائل الإعلام مثل هذا التأثير قائلاً: "لم أسمع أن أي شخص أقر بمشاهدة SNL لمدة جيل كامل، أو أوصى بمشاهدته، أو تحدث عنه، ولكن فجأةً سمعت الكثير عن العرض، وليس لأن الملايين بدأوا في مشاهدة العرض؛ لأن العرض جاء مضحكاً للمرة الثانية، ولكن لأن الناس بدأوا مشاهدة نارينا المضحكة بالطبع على الإنترنت، وكان الناس يدخلون على الروابط التي تربطهم بهذه المشاهد. بدأت NBC تتعلم قوة الشبكة التي لا يملكها أحد". وبالطبع زاد الاتصال بروابط SNL بمقدار مائتي مرة في الأسبوعين الأولين بعد بداية رواج وانتشار الفيديو.

قصة المنزل المنعزل مرت بدائرة كاملة، فهي قصة ثلاثة شبان رفضتهم صناعة الترفيه فنشروا على الإنترنت وصاروا مشهورين، وهنا تنبهت صناعة الترفيه لهذه الظاهرة نسبة لتأثير الجمهور وقامت بتوظيفهم، وفعل الشبان الثلاثة الشيء ذاته على قنوات الإرسال التلفزيوني، ولكن حيث إن ذلك الجمهور المؤثر لا يشاهد الكثير من البرامج التلفزيونية، ولم يُحظ الاسكتش بالشهرة، إلا بعد أن أُعيد نشره على الإنترنت مرة ثانية. وهكذا فإن SNL التي كان شباب الإنترنت ينتقدها في السابق أصبحت لطيفة فجأةً بدخولها في عالم الإنترنت. في وقتٍ من الأوقات كانت العروض تنتقي مواهبها من المسارح الإقليمية المغمورة ومن ثم تقوم بتحسين الفرق، إلا أنها الآن صارت تجدهم أيضاً على الإنترنت.

وبالتالي، ما هو الدرس المستفاد من هذه القصة؟ من جهة لم تتمكن صناعة الترفيه من تمييز أفراد المنزل المنعزل وتمكنت فيما بعد من الاستفادة منهم، ومن ذلك المنطلق ربما نجح النظام، ولكن إذا لم يكن ثلاثة من الشباب معهم كاميرا فيديو يقومون برقصات بلهاء ووضعها على شبكة الإنترنت ليسوا (ثمانية عشر مليوناً من الناس الذين ينتجون أعمالاً يعتقدون أنه سيكون عليها طلب وإقبال)، إذا استعرنا جملة "ديلر" التهكمية، فإنني فعلاً لا أدري من سيكون؟

من المحتمل أن المواهب التالية القادمة سوف تكون من الثمانية عشر مليوناً من الناس الذين ينتجون أعمالهم بأنفسهم وهؤلاء هم الناس الذين من المرجح أنهم سينقذون هوليوود وبقية صناعة الترفيه من الصيغة الطاحنة. قد يكون "ديلر" محقاً، قد يكون هناك عدد قليل من الناس يستطيعون كتابة المسلسل الكوميدي الشهير "الأصدقاء FRIENDS" ولكن فَكِّرْ في عدد الأشخاص الذين يستطيعون إنتاج أعمال أسرع مثل اسكتش نارينا، وهو محتوى يستطيع أن يغري الجمهور الذي نشأ على الإنترنت وهو المكان الذي تسيطر فيه الكفاءات وليس الشبكات. فَكِّرْ في عدد المواهب المحتملين الذين سيجدون الفرصة ليجدوا جمهوراً حقيقياً بفضل تعميم التوزيع على الإنترنت.

قد لا تزال الماكينة العملاقة ضرورية لعمل دراما متعددة المواسم ذات نوعيات إنتاج عالية، ولكن خلال ذلك الوقت قد تتمكن مجموعة كبيرة من الأعمال الصغيرة الجيدة مجتمعةً الحصول على جمهور مماثل، إن تلك المقارنة قد تبدو كمقارنة التفاح مع البرتقال، أي كماركات تجارية دائمة مع أعمال ترفيهية مؤقتة من الهواة، أليس ذلك ناتجاً من حقيقة أنَّ كُلاً من الاثنينِ يتنافسانِ على وقت جيل مشاهدي الإنترنت الأذكياء؟ فإذا كانوا يشاهدون نوعاً من الفيديو، فإنهم لا يشاهدون الآخر.

ما يتجاهل "ديلر" اعتباره هو أنه في وقتنا هذا قلَّ الطلب على مشاهدة أعمال فائقة النجاح مما هو على الأعمال المستهدفة، أو المركزة المحتوى التي لا تلائم كل شخص. وبينما يستمر الجمهور في الابتعاد عن أفضل ٤٠ أغنية، وعن الأفلام الكبيرة ينتشر الطلب على أعدادٍ كبيرةٍ من الفنانين الذين يتحدثون بطريقةٍ أكثر صدقاً لجمهورهم. إذن ماذا سيحدث لو أن ٩٩ في المائة من المدونات لن تجذب مطلقاً جمهوراً يزيد على بضع عشرات؟ إن الجزء من النسبة المئوية التي تظهر مع الوصول العريض للمدونات لا تزال تُحسب بالآلاف، كما أن المدونات مجتمعةً تستطيع أن تجذب بذلك الواحد في المائة عدداً مماثلاً من الجماهير مثل العديد من وسائل الإعلام الكبيرة. إن أعمال الفيديو المنتشرة يشاهدها ملايين الناس، وهو ما يمكن أن يُقال فقط عن البرامج التلفزيونية الشعبية.

وعن المؤلفين الذين ينشرون أعمالهم بأنفسهم عبر "لولو"، فإن المنتجات نفسها لا تحقق الكثير من الأرباح، ولكن ليس ذلك هو بيت القصيد. المقصود هو أن المنتجات موجودة، وأنها تأخذ حصتها من المشاهدين. إنها ليست إنتاجاً للصناعة التجارية التقليدية ولكنها تتنافس معها. وفي يومنا هذا، فإن عدد الناس الذين ينتجون المحتوى أكبر بكثير مما يستطيع الباحثون عن المواهب في وسائل الإعلام معالجته، فالمبدعون قد يربكون قارئي النصوص والمستمعين للشرائط، وحيث إن أدوات الإنتاج عمّت كلياً، فإن أعداد المنتجين قد ازداد طردياً، والآن هناك القليل مما يمكن عمله لإيقاف من لديه الاستعداد والمهارة للإبداع من عمل ذلك الإبداع.

هندسة المشاركة

لقد رأينا جزءاً من هذه القصة من قبل. في أواخر السبعينات وبداية الثمانينات أعطى وجود الجيتار الكهربائي، ووصول المسجلات المتعددة المسارات رخصةً لجيل الصغار الذين لم يتلقوا تدريباً موسيقياً، أو موهبةً واضحةً، أو إذناً من أي شخص لتكوين فرق موسيقية وتسجيل الموسيقى.

لفترة طويلة كان الافتراض هو أنك لكي تصبح موسيقياً فلا بد أن تسير على خطى رواد هذا المجال، وعليه يجب أن تبدأ بتشغيل الموسيقى التي تظهر على أغطية الأسطوانات وقراءة النوتة الموسيقية، وربما ارتياد مدرسة الموسيقى، كان لا بد أن تمر بالدائرة كاملة؛ لأن لا أحد يريد أن يسمع أعمالك الموسيقية الأصلية. *افعلها بالشكل الصحيح*.

إلا أن موسيقى "البنكس" غيَّرت أصول اللعبة، فقد قال "البنكس" حسناً لدينا الجيتارات، ولكن لا يتوجب علينا أن نفعلها بالشكل الصحيح، يمكننا أن نفعلها بالشكل الخطأ! ولن يهم الأمر ما إذا كنت موسيقياً تتمتع بالمهارة أم لا، بل يتعلق الأمر بما إذا كان لديك شيء تريد قوله".

وعن طريق موسيقى الروك لجماعة "البنكس" رأينا مجموعة ممتازة من الأصوات الجديدة الممتلئة نشاطاً وحيويةً تخالف كل أصول المؤسسات يمكنها فقط أن تأتي من خارج النظام. كان من الملهم أن ترى أناساً هناك لا يملكون من الموهبة أكثر مما تملكه أنت يستمتعون ويمرحون ويعجب بهم الملايين ويفعلون شيئاً جديداً. ولكي نقول ذلك بمصطلحات اقتصادية خفضت موسيقى البنكس من حواجز الدخول إلى الإبداع.

صار الخط التقليدي بين المنتجين والمستهلكين ضبابياً غير واضح المعالم، فالمستهلكون هم أيضاً منتجون، بعضهم يبدأ من الصفر وبعضهم الآخر يقوم بتعديل أعمال الآخرين وإعادة مزجها. نتحدث في عالم المدونات عن "الجمهور السابق" القراء الذين تحولوا من مستهلكين ساكنين إلى منتجين نشطين يقومون بالتعليق والرجوع إلى وسائل الإعلام الكبرى، ويشارك البعض بما لا يزيد على إبداء كلماتهم على

الإنترنت، ويفعلون ما كان في الماضي عمل مشغلي الموسيقى في الإذاعات ومراجعة المجلات، وكمسوقين.

وتبدو النتيجة كما يراها "تيم أورايلي" ناشر كتاب "عصر افعلها بنفسك" "DIY age"، وأطلق عليها (الهندسة الجديدة للمشاركة).

أوضح فريق من جامعة كاليفورنيا في بيركلي ذلك بخريطة جديدة من الإبداع كالآتي:

هندسة المشاركة

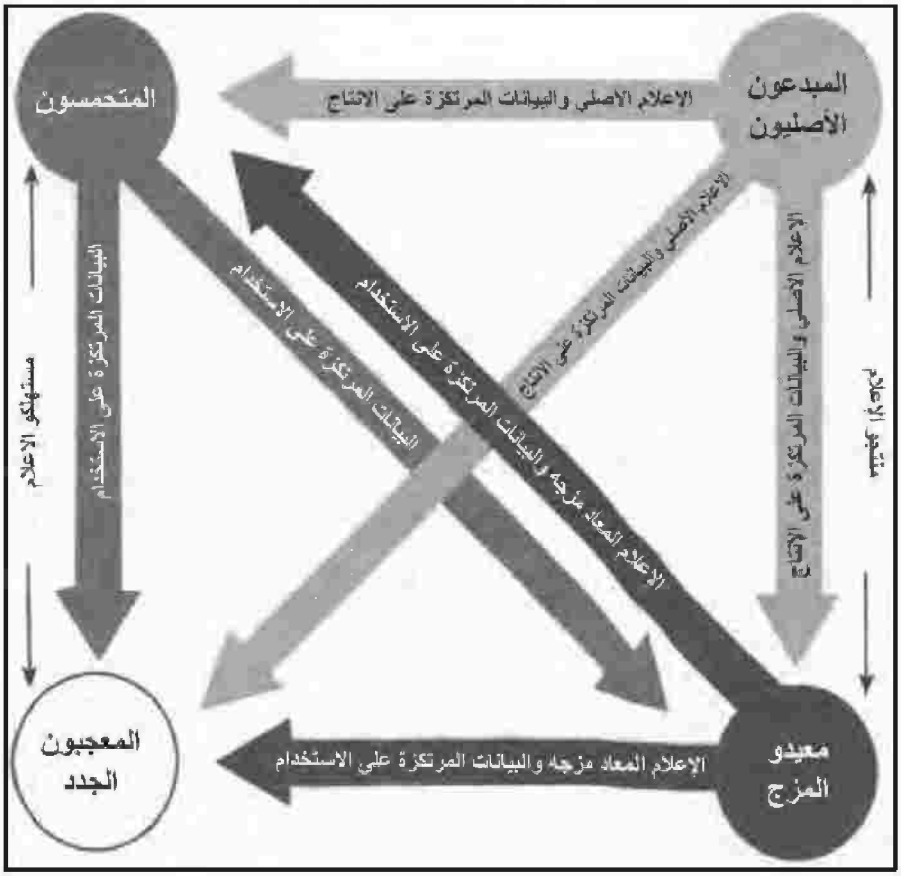

وكما يبين هذا الشكل أنه ما كان ذات مرة تركيبة صناعة أحادية ؛ حيث ينتج المحترفون ويستهلك الهواة اليوم سوقاً أضحى ثنائي الاتجاه، حيث يستطيع أن يكون أي شخص في أي معسكر في أي وقت. إن هذه لمحة فقط عما يمكن أن تحققه عملية تعميم توزيع أدوات الإنتاج والتوزيع.